قراءة في سورة القمر

د. ثناء نجاتي عياش

الملخص

يقدّم هذا البحث قراءة في سورة القمر، يهدف من خلالها إلى إبراز مواطن الجمال في النص القرآني؛ وذلك من خلال تحليل بعض الفنون البلاغية من مثل: المقابلة والمفارقة وبيان أثرهما في إبراز التناقض بين المواقف، وتحليل القصص القرآني الوارد في هذه السورة، وبيان دوره في خدمة الغرض الذي سعت سورة القمر إلى تحقيقه.

وسلّط البحث الضوء كذلك على معجزة انشقاق القمر، وعلاقة ذلك بيوم القيامة، وإبراز قدرة الخالق سبحانه وتعالى.

Abstract

This research presents a reading in Surah Al-Qamar(the moon), which aims to highlight the beauty in the Qur'anic text; through analyzing some of the rhetorical arts such as: the antithesis and the paradox to show their impacts by highlighting the contrast between the attitudes.

And it is also analyzing the Quranic stories, contained in this Surah, and showing their role in servicing the purpose ,that it sought to achieve

This Search also focused the light on the moon split miracle, and its relation to the Doomsday, to show the ability of the Creator, glory be to him.

مقدمة:

يتناول هذا البحث سورة القمر بالدراسة والتحليل؛ للكشف عن مواطن الجمال في النص القرآني، الذي يتميز بتجدد مظاهر إعجازه التي لا تبلى بمرور الأيام بل تتجدد بتجدد تأمله وتحليله، فكل عصر نجد به شيئاً جديداً، ويأتي هذا البحث ليكون لبنة في سلسلة الأبحاث التي درست بلاغة النص القرآني، الذي يتميز بقابليته للقراءات المتعددة التي تسهم في الكشف عن جمالياته.

ويقوم هذا البحث على أربعة محاور هي: المفارقة والمقابلة والقصص القرآني والمعجزات، واخترت هذه المحاور؛ لأنني لم أعثر على دراسة- فيما أعلم- حلّلت هذه المحاور، كما سأعرض لها في بحثي هذا.

وبما أن هذا البحث يهدف إلى تحليل النص القرآني؛ لذا لم أُطل الوقوف عند الجانب النظري للمصطلحات وبخاصة المفارقة نظراً لكثرة تعريفاتها، وتعدد أنماطها وأساليبها....الخ، وقد ذكر لها ميويك خمسة عشر تعريفاً في كتابه، وبيّن "أنها لا تعني اليوم ما كانت تعنيه في عصور سابقة، ولا تعني في قطر بعينه كل ما يمكن أن تعنيه في قطر آخر، ولا عند باحث ما يمكن أن تعنيه عند باحث آخر"[1] واكتفيت بتسليط الضوء على مفارقة التصور؛ لأنها أقرب أنماط المفارقة لما ورد في سورة القمر، كما سيتضح من خلال البحث.

وغني عن القول إن المفارقة -كما سيتضح- تسهم في إبراز مقدار التباين بين ظاهر الكلام والمعنى الحقيقي المراد؛ لذا فهي كشفت عن حقيقة المشركين الذين دفعهم عنادهم وإصرارهم على الكفر إلى الطلب من الرسول-عليه السلام- معجزة لتدل على صدقه؛ ليؤمنوا برسالته كما يشي ظاهر حالهم، ولما تحقق مرادهم ازدادوا إعراضاً وكفراً.

أما المقابلة فلأنها أظهرت التقابل بين مواقف المؤمنين ومواقف المشركين عبر العصور، وتبعاً لذلك جاء الجزاء المتناسب مع موقف كل طرف، وشتان بين الموقفين والمصيرين.

وتوقفت عند القصة في سورة القمر؛ لأن القرآن الكريم استعان بالقصة لما لها من قدرة على الإقناع والتأثير، واتضح هذا من خلال سرد القرآن الكريم لعدد من قصص الأنبياء- عليهم السلام- مع أقوامهم لبيان سوء عاقبة الذين كفروا، ولتحذير مشركي مكة من ملاقاة المصير نفسه.

وتحدثت عن المعجزات التي أيد بها الله- سبحانه وتعالى- رسله-عليهم السلام- لتكون دليلاً على صدقهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى لتتحدى أقوامهم، ولإقامة الحجة عليهم.

واستعنت بما ورد في التفاسير وكتب البلاغة وعلوم القرآن من آراء أسعفتني في التحليل؛ لأنها شكلّت المهاد النظري الذي اتكأت عليه، ولأنها تتعاضد معاً في الكشف عن جماليات النص القرآني، ولم أغفل عن أثر السياق في فهم المعنى المراد.

ولعلّني نجحت في تحقيق الهدف المأمول من هذا البحث، وإن كان غير ذلك فبتقصير مني، وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين.

التمهيد:

سُبقت سورة القمر بسورة النجم التي تحدثت عن معجزة عروج الرسول- عليه السلام- إلى السماوات العلى؛ لذا خُتمت سورة النجم بالسجود لله -تعالى- شكراً له، ثم جاءت سورة القمر؛ لتكمل الحديث عن إحدى معجزاته المادية -عليه السلام- معجزة انشقاق القمر.

وخُتمت سورة القمر بالحديث عن أجواء الرحمة والنعيم التي سينعم المتقون بها؛ لذا افتُتحت السورة التي تليها (سورة الرحمن) بأجواء الرحمة، وتعداد نعم الله -سبحانه وتعالى- على مخلوقاته، وذكر الأدلة الدّالة على قدرته سبحانه وتعالى.

وتشترك السور الثلاث (النجم والقمر والرحمن) بإبراز مظاهر قدرة الخالق- سبحانه وتعالى- فعلى سبيل المثال افتُتحت سورة القمر بالحديث عن مظهرين من مظاهر قدرته- سبحانه وتعالى- تمثلت في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[القمر:١] فاقتراب الساعة تمهيد لتصوير مشهد غيبي مما سيحدث مستقبلاً، أما انشقاق القمر فمشهد من الحاضر مما حدث على الأرض حقيقة، وشاهده مَن عاصره، وكلاهما يبرزان عظيم قدرة الخالق، وخُتمت السورة بالحديث عن مظهر آخر من مظاهر قدرته- سبحانه وتعالى- تمثلت في إدخال المتقين الجنة، وهذا ما يسمى بالأسلوب الدائري(*). فالسورة خُتمت بما بُدئت.

ويلحظ افتتاح سورة القمر بالفعل الماضي (اقتربت) للتعبير عن حدث مستقبلي (حدوث يوم القيامة) للدلالة على تحقق وقوعه كما في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١]، كما أن الوزن افتعل (اقترب) يدل على زيادة في القرب، فلو قال: سوف تقترب أو ستقترب لدلّ على الاستقبال، أما

استعمال الفعل الماضي فدلّ على أنه واقع مستقبلاً لا محالة، حتى لكأنه وقع وانتهى الأمر.

وبدأت السورة بهذا الخبر القارع للأذن ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، والمفاجئ للقارئ لعله يلتفت إلى هذا الأمر، ويسأل نفسه إذا اقتربت الساعة فماذا أعددتُ لها؟ وكيف سأتعامل معها؟ وكيف سأقابلها؟ وهذا من التكثيف الذي يُترك للقارئ إدراكه، إنهما حدثان متتابعان مترابطان أحدهما حدث في أرض الواقع، والآخر سيحدث مستقبلاً، وحدوث ثانيهما دليل على تحقق الآخر لا محالة، فهما جملتان متطابقتان تركيباً (فعل وفاعل) وتأثيراً.

وقدّم اقتراب الساعة الذي سيحدث في المستقبل على انشقاق القمر، والذي هو حدث ماض قريب؛ ليدل على أن وقوعها حتمي، وهي الحدث الأهم، ومن شأن العرب تقديم الأهم[٢]، كما أن معجزة انشقاق القمر حصلت وعاينوها بأعينهم، وما انشقاق القمر إلا دليل على اقتراب الساعة، كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه[٣] كما لا يخفى ما في ذلك من دلالة على الإنذار، فقد بات الأمر وشيكاً. كما أن استجابة القمر لله -تعالى- إيحاء بأن الساعة أيضاً ستستجيب له- سبحانه- كما استجاب القمر لإرادته.

كما أن ترتيب الأحداث في السورة (انشقاق القمر، وتعذيب الأقوام السابقة، وتنويع العذاب الذي حلّ بهم) يتضمن تكثيفاً آخر للمعنى، فالقادر على شقّ القمر، والقادر على تعذيب الأقوام السابقة بألوان شتى من العذاب، قادر على البعث، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، قادر على تعذيب كفار مكة في الدنيا وفي الآخرة، وذلك إيذان بفصل الأمور والناس إلى اثنين وصنفين.

تحدثت السورة عن حصول المعجزات، ونزول العذاب الدنيوي بالأمم السابقة، وهزيمة المشركين في بدر؛ لتدل على أن الإرادة الفاعلة المتحكمة في حركة الكون وناسه واحدة، وأنه يجب على المخاطبين الاتعاظ من السابقين.

المفارقة في سورة القمر:

من المتعارف عليه أن من أهم مرتكزات المفارقة قيامها على التناقض الظاهري بين الكلام المذكور والمعنى المراد، فقد يقول الإنسان شيئاً وفي الحقيقة يريد معنى مختلفاً، بل قد يقوم بسلوك يتعارض مع ما ادّعاه، وكلما كان التباين بين الموقفين أكبر كانت المفارقة أشد؛ لأنَّ "الميزة الأساس في المفارقة تباين بين الحقيقة والمظهر"[٤]وتجلّى هذا الأمر في موقف المشركين من الرسول- عليه السلام- كما سرد قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌ﴾ [القمر:٢] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌ﴾ [القمر:٣]. وجاءت المفارقة في الآيتين السابقتين لتبرز مقدار إصرار المشركين على عنادهم، وحرصهم على باطلهم فها هم يقولون بعد أن شاهدوا معجزة انشقاق القمر بأن محمداً- عليه السلام- سحر أعيننا، أو سحر القمر[٥]، وتكمن المفارقة في طلبهم من الرسول- عليه السلام- أن يأتيهم بآية، ووعدوه بالإيمان إن فعل، فانشقّ القمر مرتين[٦] وعندما حدث ما طلبوه كان ردهم الآنف الذكر، وكان يجدر بهم المسارعة إلى الإيمان لا العناد والتكذيب؛ ولم يكتفوا بذلك بل وصفوا ما حدث بالسحر المستمر أي "ذاهب يزول ولا يبقى، تمنية لأنفسهم وتعليلاً وهو الأنسب بغلوّهم في العناد والمكابرة"[٧]. ويمكننا تسمية المفارقة هنا بمفارقة المفهوم والتصور[*]؛ لأنها تقوم على التعارض بين موقف الشخصية، ومفهومها للأشياء أو مسلكها[٨]؛ لأنهم هم الذين طالبوا بالمعجزة وعندما تحقق ما طلبوا تمادوا في عصيانهم، وهم أرادوا أن يعجزوه- عليه السلام- لعلمهم أن انشقاق

القمر أمر مستحيل، فلما أعجزهم بتحقيق مطلبهم، صار المستحيل حقيقة فلم يجدوا مفراً إلا أن سموه سحراً، إذن هم غفلوا عن دلالة انشقاق القمر عندما قالوا ما قالوا، والله- سبحانه وتعالى- ينعى عليهم سوء فعلهم هذا، فوزن انفعل في قوله تعالى: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَر﴾ [القمر:١] يدل على المطاوعة، إذ بمجرد أن أمره- سبحانه تعالى- بالانشقاق انشقّ، إذن كل ما في الكون مُسخّر لأمره تعالى، وهذه مفارقة ثانية تقوم على التباين بين موقفهم وموقف القمر، فغير العاقل انصاع لأمر الله- سبحانه تعالى- أما هم (العقلاء) فاستمروا في عصيانهم وتمردهم.

وجاء إعراضهم بالفعل والقول معاً بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا﴾ فبعد رؤيتهم الحدث أعرضوا ووصفوا ما شاهدوه بالسحر المستمر. أما تنكير كلمة (آية) فيكشف عن حقيقة كامنة فيهم، وهي الإعراض عن كل معجزة يأتي بها الرسول-عليه السلام- مهما كانت عظيمة؛ ولهذا جاء إنكارهم لمعجزة انشقاق القمر منسجماً مع حقيقة أنفسهم، فموقفهم واحد إزاء أي آية سواء كانت انشقاق القمر أو غير ذلك، فالنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، وجيء بخبر إنكارهم في صورة الشرط للدلالة على أن هذا ديدنهم ودأبهم[٩]. كما أن تنكير آية يدل على التعظيم فهي آية عظيمة واضحة مفلقة، والتعظيم من معاني التنكير بمعنى "أنه أعظم من يعين ويعرّف، نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة:٢٧٩] أي حرب[١٠]!.

أما التعبير بالفعل المضارع فيدل على أن هذا هو شأن الكافرين مع المعجزات الربانية، هو هو لا يتغير. وليت الأمر وقف عند الإعراض بل جاءت صيغة

التضعيف في قوله (وكذّبوا) للدلالة على شدة تكذيبهم وإعراضهم، وتكرار تكذيبهم، واستمرارهم على ما هم فيه من كفر.

كما أن المراوحة بين الأفعال المضارعة (يروا- يقولوا- يقولوا) والماضية (كذّبوا- واتبعوا) تكشف أيضاً عن حقيقة أنفسهم وتخبر "عن حالهم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل بالشرط"[١١].

ولم يكن هذا الموقف خاصاً بمشركي مكة، فهاهم المشركون عبر العصور يفعلون الفعل نفسه، بدليل ما قصته سورة القمر من مواقف الأقوام السابقة مع أنبيائهم، فقد توالت النذر المتكررة تحذّرهم من عاقبة الكفر والعصيان، وكان من المتوقع أن يستجيبوا لهذه النذر، لكن المفارقة أنها لم تُجدِ نفعاً، بل ازدادوا عتوّا وكفراً كما صورت الآيات: ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَر حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُر﴾ [القمر: ٤و٥]. وتحتمل نُذُر في الآية السابقة أن تكون جمعاً[١٢]، مما يعني أن الإنذارات تنوعت وتكررت ولم تكن إنذاراً واحداً[١٣] فإذا لم يُجدِ الإنذار الأول فلعل الثاني يُجدي وهكذا، ولكنهم هم هم لم يتغيروا رغم تغير النذر وتعددها. وتحتمل النذر أن تكون مصدراً بمعنى الإنذار[١٤] للدلالة على أن الإنذار حدث مطلق غير مرتبط بزمن محدد.

وإذا أخذنا بالرأي القائل إن المراد بـ(النُذُر) في الآية السابقة آيات القرآن الكريم[١٥] فيكون الإنذار متجدداً بتجدد قراءة القرآن الكريم، ولا يتوقف؛ لذا جاءت (ما) في قوله تعالى (فما تغن) إما للدلالة على النفي بمعنى "لا تغني عنهم النذر بعد ذلك"[١٦]، وتحتمل أن تكون للاستفهام الإنكاري بمعنى "ماذا تفيد النذر في أمثالهم المكابرين المصرّين"[١٧]، وكلا المعنيين صحيح "فالنذر لم تغنهم شيئاً، وإن لم تغنهم النذر المشتملة على حكمة بالغة فأي شيء يغنيهم؟ الجواب: لا شيء"[١٨].

إن تكرار النذر بعد كل نهاية مأساوية لكل أمة من الأمم السابقة يولد في نفس المتلقي المتفكر الشعور بالأسى، والرغبة في النجاة مما أوقعوا أنفسهم فيه، وبخاصة أنها سُنّة الله الدائمة عبر الأزمان، ولن تتغير.

وافتتاح الآية بالمؤكدات المتتالية :اللام وقد والقسم المقدر الذي دلت عليه اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءهُم﴾ يبين شدة إعراضهم، وعدم انتفاعهم بالنذر، ولم تحقق الهدف المراد منها؛ لذا جاء التعبير بالفعل المضارع (فما تغن) "للدلالة على تجدد عدم الإغناء واستمراره حسب تجدد مجيء الزواجر واستمراره"[١٩].

كما أن المصدر الميمي (مزدجر) يدل على المبالغة في الردع؛ لأنه يتضمن إضافة إلى معنى الزجر، معنى المدعاة للزجر، فتتضمن السبب وما ينبغي أن يترتب عليه من مُسَبّب، ووُصفت الحكمة بـ(البالغة) من باب المجاز العقلي، للدلالة على تضمنها كثيراً من المؤثرات، فما أُرسل إليهم كان كافياً لردعهم وزجرهم إلا أنهم لم ينتفعوا به؛ لذا مَن كان هذا شأنه فمن واجب الرسول- عليه السلام- نحوه التولي والإعراض عنه؛ لأن مهمته تنحصر في التبليغ لذا جاء الأمر في قوله (فتولّ عنهم) للإبانة عن هذا المعنى.

وتضمّن قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦] مفارقتين لتكونا مثالاً ونموذجاً واضحاً على أحد الإنذارات التي حذّر منها لوط- عليه السلام- قومه، والمفارقة الأولى في تماديهم في طغيانهم، فالتمادي يدل على التكذيب الممزوج بالشك[٢٠] والتماري هنا تضمن معنى التكذيب؛ لذا عُدّي بالباء[٢١] وكأنهم كذبوا بالنذر لشكّهم في تحققها حتى يبرروا لأنفسهم التكذيب، وردت المؤكدات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ على كذبهم فما قُدّم لهم من الإنذار كان كافياً لإقناعهم، لولا أنهم

أصمّوا آذانهم عن سماعها. ومما يدل على شدة الإنذار المُقدّم إليهم قوله تعالى: (بطشتنا) فاسم المرة (فَعْلَة) يدل على الأخذ العنيف والسريع[٢٢]، وعلى الرغم من هذا الوصف والتخويف إلا أنهم لم ينتفعوا به.

وتكمن المفارقة الثانية في سرعة تكذيبهم بالنذر لدلالة الفاء في (فتماروا) على ذلك، وكان يجدر بهم الانتفاع بالنذر أو على الأقل إعطاء أنفسهم مهلة للتفكير بها.

وتنوعت طرق عرض المفارقة في السورة تارة من الماضي البعيد كما في الحديث عن تكذيب قوم لوط- عليه السلام – في الآية الآنفة الذكر، وعدم انتفاعهم بالنذر، وتارة أخرى من حاضر مشركي مكة كما في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِر﴾ [القمر:٤٣و٤٤] عندما أخذتهم العزة بقوتهم المادية وظنوا أن النصر سيكون حليفهم، وجاء التعبير بالجملة الاسمية ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِر﴾ لإبراز ثقتهم بقوتهم المادية، واعتدادهم بقدرتهم على تحقيق النصر، وجاء الرد الصريح المباشر في قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥]؛ ليكون بمنزلة القارعة التي تقرع آذانهم، ولكنهم لم يصدقوا ما سمعوا، حتى شاهدوا الهزيمة بأم أعينهم في غزوة بدر، والمفارقة تكمن في عدم تصديقهم ما سمعوا على الرغم من دلالة السين في (سيعلم) على التوكيد، ولتقريب المستقبل[٢٣].

والمفارقة الثانية في انهزامهم وتوليهم الدبر على الرغم من ثقتهم العالية بأنفسهم؛ لأنه غاب عن ذهنهم عندما قالوا ما قالوا أن للنصر سناً إلهية لا تتخلف، ومقاييس النصر من منظور بشري وحدها لا تكفي.

وتضمنت الآية السابقة إعجازاً غيبياً؛ لأن الآية نزلت قبل حدوث غزوة بدر، والغرض تبشير الرسول- عليه السلام- والمسلمين، وفي الوقت ذاته إنذار المشركين وتخويفهم[٢٤]، هذا مما سيحدث لهم في الدنيا، غير أن ثمة عقوبة أخرى تنتظرهم في الآخرة أفصح عنها قوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَر﴾ [القمر:٤٦] وجاء التعبير بالجمل الاسمية المتتابعة للإفادة من دلالتها على الثبات والديمومة والاستقرار، مما يعني أن العذاب حالّ بهم لا محالة، ويلحظ أن الساعة جاءت مبتدأ في الجملتين، وكان يمكن استعمال الضمير العائد عليها في الجملة الأولى (الساعة موعدهم، وهي أدهى وأمرّ) غير أنه-سبحانه- كرر كلمة الساعة لتقرع بجرسها الآذان، وتنبه العقول، وهي معرفة وواحدة، مما يشير إلى أن توقيتها واحد، وأنها هي محور الحديث، والخبر (موعدهم) للدلالة على وقتها المحدد، و"أدهى، وأمرّ على وزن أفعل من الداهية" وأمرّ من المرارة وهو تذوق لساني، سحب على التذوق النفسي والعقلي، وحذف المفضل عليه لإطلاق صفتي التفضيل فتتفوق على كل ما يمكن أن يقارن بهما من الدواهي، وما ينتظرهم أدهى وأمرّ من كل ما عرفوا من التخويف والتهويل فالداهية "الأمر المنكر العظيم، الذي لا يُهتدى لدفعه، وهي الرزية العظمى تحلّ بالشخص"[٢٥]، ومما زاد من صعوبة الموقف اقتران الداهية بالمرارة وهي "استعارة لصعوبة الشيء على النفس"[٢٦].

وتضمن قوله سبحانه (أمرّ) استعارة؛ لأن المرارة لا يوصف بها إلا المذوقات والمطعومات، ولكن الساعة لما كانت مكروهة عند مستحقي العقاب، حَسُن وصفها بما يوصف به الشيء المكروه المذاق. ومن عادة مَن يلاقي ما يكرهه، ويرى ما لا يحبه، أن يحدث ذلك تكليحاً في وجهه، يدل على نضور جأشه، وشدة استيحاشه، فكذلك هؤلاء إذا شاهدوا أمارات العذاب، ونوازل العقاب، ظهر في وجوههم ما يستدل به على

فظاعة الحال عندهم، وبلوغ مكروهها من قلوبهم، فكانوا كلائك المُضْغَةِ المَقِرة، وذائق الكأس المصَّبَرة، في فَرْط التقطيب وشِدَّة التكليح. وشاهد ذلك في قوله سبحانه: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُون﴾ [المؤمنون:١٠٤][٢٧].

ومما سبق يتضح أن حقيقة المشركين واحدة عبر العصور هي هي لا تتغير، فقوم لوط-عليه السلام- كذّبوا بالنذر التي حذّرهم منها لوط- عليه السلام- وكذلك فعل مشركو مكة، فقد رفضوا الإيمان بعد رؤيتهم انشقاق القمر.

المقابلة في سورة القمر:

لعل من أبرز المشاهد على المقابلة في سورة القمر الحديث عن شقاء أهل النار، والحديث عن نعيم أهل الجنة، وهذا يأتي منسجماً مع اعتماد القرآن الكريم على الترغيب والترهيب معاً، كما يتضح من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر:٥٤]، فمن حيث الترتيب سبق الحديث عن عذاب أهل النار الحديث عن نعيم أهل الجنة؛ لأن الحديث عن جزاء أهل النار جاء في ختام الحديث عن مظاهر العذاب التي حلّت بالأقوام التي كذبت أنبياءها، كما أن هذا يتناسب مع أجواء الوعيد الذي تضمنته السورة.

وبدأت الآية بالتوكيد (إن واسمية الجملة) للدلالة على تحقق وقوع الحدث وهو تعذيب الكفار في نار جهنم (أمر غيبي) وصورّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨] نوعين من العذاب سيحلان بالمشركين: عذاب مادي يتمثل في السحب على الوجوه لإهانتهم وتحقيرهم، وفي الوقت ذاته فإن "السحب في النار أشد من ملازمة المكان؛ لأن به يتجدد مماسة نار أخرى فهو أشد تعذيباً"[٢٨]. وجاء التعبير بالفعل المضارع المبني للمجهول (يسحبون) للدلالة على

تجدد العذاب بتجدد الحدث (السحب)، وزيادة في تحقيرهم وإهانتهم، كما أن السحب يوحي بعجزهم وضعفهم في هذا اليوم فهم لا حول ولا قوة لهم، وفي هذا تعريض بهم لأنهم كانوا يصولون ويجولون في الدنيا مغترّين بقوتهم الخادعة، أما التعذيب المعنوي فيتمثل في صيغة الأمر (ذوقوا)، وكلاهما يشتركان في الدلالة على المستقبل مما يشي باستمرارية العذاب وتجدده ولا يخلوان من الإهانة والتحقير[٢٩].

وتضمن قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ وصف مظهرين من مظاهر حال المشركين، فقد كانوا في تيه معنوي وتخبط في الدنيا حال دون إيمانهم، فكانت عاقبة هذا الضلال أنهم الآن في سعر في نار جهنم، بما استحقوا على أعمالهم في الدنيا، وربطت الآية بين مشهدين: مشهد من الدنيا ومشهد من الآخرة بالواو في لقطة واحدة؛ لتدل على العلاقة الوثيقة بينهما، واشتراكهما واقترانهما واقتراب حالهم في الآخرة من حالهم في الدنيا، فلخصت حال المشركين في الدنيا والآخرة في كلمتين؛ لذا جاءت (في) التي تشير إلى التوسط والتوغل في قوله: ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ لتصور شدة انغماسهم في ضلالهم في الدنيا وشدة العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة[٣٠]، وأوحت كلمة (سُعر) بشدة العذاب الذي ينتظرهم، وتدل كذلك على اشتعال النار وتأججها، فمن دلالات السُعر الجنون تشبيهاً لها بالناقة المسعورة "شديدة السرعة" وكأن بها جنوناً[٣١]، كما أن جمعها (سعر) دليل آخر على شدة اشتعالها، وتنوع أنواعها، واستمرار تأججها، فالضلال واحد مهما تنوعت أشكاله، ومآله متنوع لكنه من جنس النار وسعيرها على تعدده وتنوعه؛ ليكون العذاب أشد والألم أشد.

وتميزت الآية السابقة بما فيها من إيجاز أغنى عن ذكر كثير من التفاصيل، فكلمة (ضلال) لخصت حالهم في الدنيا، وكلمة (سعر) لخصت حالهم في الآخرة.

وأظهر الله- سبحانه وتعالى- المجرمين في قوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ مع أنهم مشمولون بضميرهم في قوله: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ من باب "الإظهار في مقام الإضمار لإلصاق وصف الإجرام بهم"[٣٢].

كما أن قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ تضمن مقابلة ثانية، جاءت للرد على ظاهر قول ثمود عندما رفضوا الإيمان بنبوة صالح- عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٢٤] فهم ادعوا أنهم في ضلال وسعر إن آمنوا، لكن هاهم يرون بأم أعينهم الضلال والسعر حقيقة في الآخرة، كما أنهم أكثروا من المؤكدات في قولهم: ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ وجاء الرد من باب المشاكلة لقولهم: ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ لأن الضلال الحقيقي والسعر الحقيقية في الآخرة، وليس ما ذهبوا إليه افتراءً.

وإذا أخذنا بالرأي القائل إن صالحاً- عليه السلام- كان يقول لهم: "إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر فعكسوا عليه- عليه السلام- لغاية عتوهم فقالوا إن اتبعناك كنا إذن كما تقول"[٣٣]، فموقفهم هذا دال على شدة كفرهم.

وكما صورت الآيتان السابقتان حال المشركين يوم القيامة صوّر قوله تعالى:﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر:٥٤] حال المتقين في اليوم نفسه، والغرض من اتباع وصف حال المشركين بحال المؤمنين "ليتكافأ الترهيب والترغيب بين مالهم من حسن الحال بطريق الإجمال"[٣٤]. وافتتحت الآية بالتوكيد (إن واسمية الجملة) للتحقق من وقوع الحدث، وجاءت المتقون هنا في مقابلة المجرمين هناك، كما أن جنات في مقابل ضلال، ونهر في مقابل سعر، وشتان بين الحالين.

وعلى الرغم من أن جمع كلمة جنات أفاد كثرة النعيم إلا أنها جاءت نكرة زيادة في تعظيم شأنها، وللمبالغة في تصوير عظم النعيم الذي ينتظر المتقين. وفي تنكير

ضلال ما يدل على سوء حال المجرمين يوم القيامة. إذن جاء التنكير في السياقيين لتعميم النعيم والعذاب كل في موضعه.

وكما صورت آيات عذاب المشركين مشهداً من مشاهد عذابهم المتمثل في سحبهم على وجوههم والقول لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ صورت آيات المتقين مشهداً من مشاهد تكريمهم، وعلى الرغم من وجازة المشهد إلا أنه شمل كل أنواع التكريم التي يمكن تخيلها، فما الذي يريده المؤمن من تكريم أكثر من أن يكون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] "فأي منزلة أكرم من تلك المنزلة، وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها"[٣٥]. كما أن المقعد "مكان القعود، والقعود هنا بمعنى الإقامة المطمئنة"[٣٦]، وفي هذا تكريم آخر لهم؛ للإيحاء بعدم زوال هذا النعيم عنهم، وهذا ما أفصح عنه وصف المقعد بالصدق فهو "مقعد كامل في جنسه مرضي للمستقر فيه، فلا يكون فيه استفزاز ولا زوال، وإضافة (مقعد) إلى (صدق) من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة في تمكن الصفة منه"[٣٧]، وفي هذا تكريم آخر؛ لأن هذا النعيم لا كدر فيه مما يوحي بمقدار الراحة والدعة التي ينعم بها أهل الجنة، ويأتي هذا التكريم في مقابل العذاب المادي والمعنوي الذي يجده المجرمون المتمثل في السحب على الوجوه والقول لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨] "تقريعاً وتوبيخاً"[٣٨].

وأبانت (في) في الآية السابقة عن استغراقهم في النعيم، فهي "للظرفية المجازية التي هي بمعنى التلبس القوي كتلبس المظروف بالظرف"[٣٩]، ولو كان التعدي بـ(على) لكان المعنى على الحقيقة وهو القعود أو مكانه، غير أن المراد هو الكناية عن كل ما يدل على الراحة والأمن والتكريم، وهي تشمل الدلالة على الزمان، والمكان وهيئة القعود.

وجاءت (عند) الظرفية لـ" تدلّ على قرب المكانة من الله تعالى"[٤٠]، وتشير كذلك إلى منزلة عظيمة لإضافتها إلى المستضيف المنعم هو (مليك مقتدر)، وإذا كان التكريم يأتي على قدر المستضيف فما بالك إذا كان المستضيف (المليك المقتدر)! وجيء

بهما نكرتين للدلالة على التخصيص له وحده بالملك والاقتدار، فإذا كان قد خَوّل بالملك في الدنيا أناساً ابتلاءً، وأعطاهم القدرة فيها امتحاناً، فإنه لا جنس لمليك غيره، ولا مقتدر غيره، وفي ذلك إرهاص إلى ما ينبغي أن ينصرف إليه ملوك الدنيا، وما يصرفون فيه قدرتهم وهو توقير الصادقين؛ لتصلح دنياهم ويفوزوا بأخراهم.

واختار (مليك) دون ملك زيادة في التعظيم بإطلاق الملك لذاته السنية، وللدلالة على تفرده بالملك إذ ذاك، وهو الذي ملّكهم "مقعد صدق" لصدقهم في الإيمان به. ووصف المليك بـ(المقتدر)؛ لأن فعيل تحتمل أن تكون صفة مشبهة فتعني ثبات الملك له- سبحانه وتعالى- وملازمته، وتحتمل أن تكون صيغة مبالغة مما يوحي بعظمة ملكه؛ وقد تكون (المقتدر) اسم فاعل من الاقتدار بمعنى مُسَيِّرِ الأقدار، ومحددّها[٤١]، وهو المقتدر لإطلاق القدرة كلها لذاته، وهو وحده إذ ذاك القادر على أن يعز وأن يذل؛ لذا فهو يمنح من ملكه ما يشاء من نعيم ولا ينقص ذلك من ملكه شيئاً، وتممت (مقتدر) هذا المعنى، فالمليك المقتدر أبلغ من المالك القادر، فـ"قوة اللفظ لأجل قوة المعنى، إنما تكون بنقل اللفظ من صيغة إلى صيغة أكثر منها حروفاً، فلأجل ذلك يقوى المعنى لأجل زيادة اللفظ، وإلا كانت زيادة الحروف لغواً لا فائدة وراءها"[٤٢]؛ فكل زيادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى. وعلى الرغم من أن كلمتي (مليك مقتدر) دلتا على عظمته سبحانه ومطلق قدرته، إلا أنه سبحانه نكّرهما للدلالة على التعظيم[٤٣]أيضاً.

ومما سبق ذكره يتضح أن الآتيين: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر:٥٤] تعرضان لوحتين من المستقبل الذي ينتظر الفئتين:

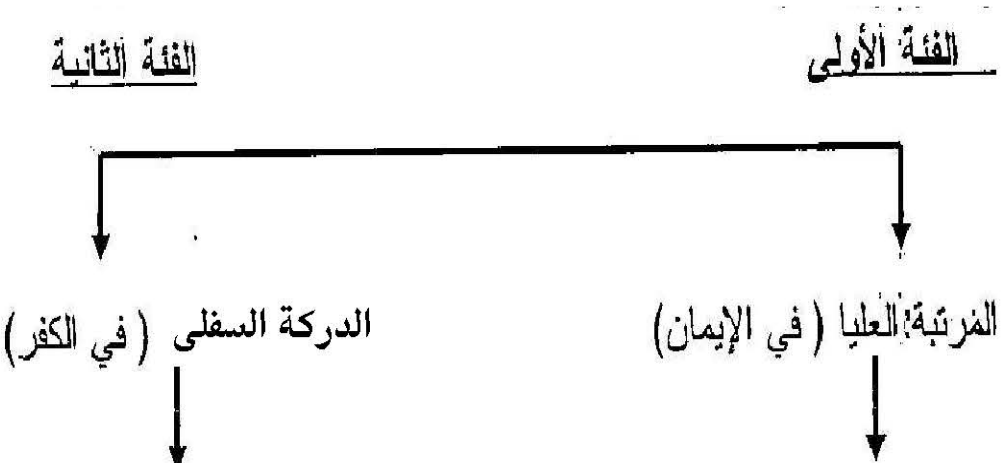

يقابلهم ضمنا لوحة من الماضي البعيد حيث كانوا في الدنيا، ويوم القيامة يجنون ثمرة عملهم :

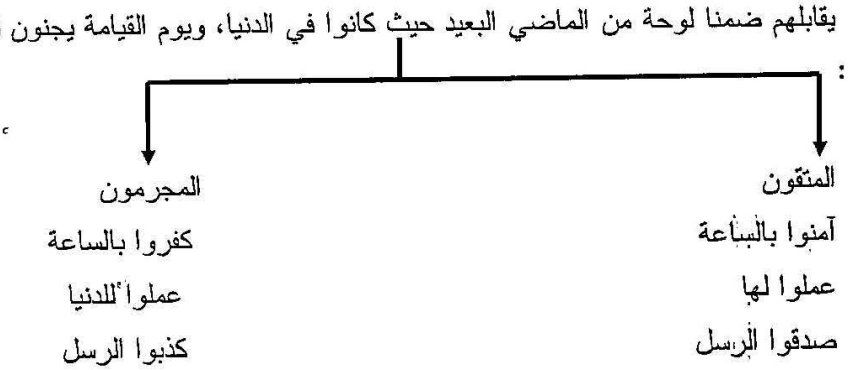

فهي سلسلة من الأعمال والمواقف انتهت بوصفهم بالمتقين وبالمجرمين، وتصنيفهم إلى فئتين، وبيان مآلهم، ومن بلاغة النص القرآني اكتفاؤه بتسليط الضوء على عاقبة الطرفين، اعتماداً على قدرة القارىء على معرفة السبب الذي أدى إلى هذا المصير، فنحن نستنبط غير المذكور مما هو مذكور(٤٤).

القصص القرآني في سورة القمر:

قصت سورة القمر عدداً من قصص الأنبياء مع أقوامهم اتحدت في نهايتها، وهي حلول العذاب المدمّر بهم، بعد أن شاهدوا المعجزات الدالة على قدرة الخالق-سبحانه وتعالى- والدالة على صدق أنبيائه، وتكررت النُذُر المُحذِرّة من عذاب الله ولكنهم لم يتعظوا؛ لذا تكرر قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر﴾ تعقيباً على هلاكهم في أكثر من موضع في السورة.

وتنوعت مواضع ورود الآية الآنفة الذكر في السورة فتارة جاءت في خاتمة القصة كما في قصة عذاب قوم نوح وثمود، وتارة جاءت في مفتتح القصة كما في قصة عذاب عاد وفي نهايتها أيضاً.

إلا أن غرض الاستفهام في المرة الأولى التشويق للخبر الوارد بعده؛ لأن صفة العذاب الذي حلّ بهم لم يذكر حتى الآن، فيصبح القارئ متشوقاً لمعرفته، فجاء

التفصيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ﴾ [القمر:١٩] كما أن الاستفهام يتضمن كناية عن تهويل ذلك العذاب الذي حلّ بهم(٤٥)، وهذا الأمر يُفهم ضمناً من تكرار الآية نفسها في خاتمة قصتهم قبيل هلاكهم، وبذا يكون تكرار الآية "تهويل لهما وتعجيب من أمرهم، فكان التحذير مرتين: مرة قبل هلاكهم والثانية التحذير لغيرهم بعد هلاكهم"(٤٦)، ومع أن قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ جاء في التعقيب على هلاك الأمم السابقة لما استحقوا العذاب، إلا أنه يتضمن تعريضاً بمشركي مكة، وتحذيراً من أن يصيبهم العذاب جزاء تكذيبهم للرسول- عليه السلام- وإعراضهم عنه وأذاهم له(٤٧).

كما أنه في الوقت ذاته يتضمن تحذيراً لكل من يخالف أوامر الله- سبحانه وتعالى- فهو تضمن دليلاً مادياً على قدرته- سبحانه- على إيقاع العذاب بمن يستحقه؛ لذا جاء الاستفهام (كيف) لغرض "التعظيم والتعجيب أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف"(٤٨)، وأسند الله- سبحانه وتعالى- العذاب إلى نفسه في قوله (عذابي) للإشعار بعظمة ذلك العذاب، ورغم أن كلمة (نذر) تدل على الجمع إلا أنها جاءت نكرة للدلالة على كثرة تكرار إنذار الرسل لأقوامهم(٤٩) قبل أن يحلّ بهم العذاب، وفي هذا دليل على رحمة الله بعباده، وفي الوقت ذاته دليل على شدة إعراضهم.

أما قصتا قومي لوط وفرعون فخلتا من قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ربما لأن قوم لوط- عليه السلام- تميزوا بنوع من الفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين كما صرّح بذلك القرآن الكريم*؛ لذا استعيض عنه بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:٣٧و٣٩] في موضعين اثنين، وجاءت صيغة الأمر (فذوقوا) إمعاناً في تعذيبهم وإحساسهم بالألم، فكما قيل لهم في الدنيا ذلك، سيقال لهم في

الآخرة الأمر نفسه، وفي هذا إشارة إلى استمرارية تذوقهم العذاب حتى بعد أن انتهى نزوله بهم في الدنيا، والمراد بالعذاب في المرة الأولى (الطمس) "فإنه من جملة ما أنذروه من العذاب"[٥٠]، وكان بمنزلة العقوبة المباشرة والفورية على مراودتهم له- عليه السلام- عن ضيوفه، وهذا العذاب يمهد للعذاب الأكبر الذي سيحل بهم قريباً، ويمهد كذلك لعذاب الآخرة الذي ينتظرهم كما صورّت الآيات بعد ذلك، وجاء تكرار الآية نفسها ثانية حتى يتعظوا ويعتبروا[٥١] لكنهم أصموا آذانهم؛ لذا "عطف النذر على العذاب باعتبار أن العذاب تصديق للنذر، أي ذوقوا مصداق نذري"[٥٢].

أما فرعون فقد تميز بادعائه الإلوهية وهذا أمر لم يسبقه إليه أحد من العالمين[*] لذا جاء قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤٢] في ختام قصة عذابه وقومه، فما سر المغايرة بين خاتمة قصة فرعون وخاتمة قصص أقوام الأنبياء السابق ذكرهم؟ على الرغم من اتفاق الآيات في المعنى العام وهو إبراز قدرة الله- سبحانه وتعالى- ولعل مرد ذلك إلى أن فرعون يمثل نموذجاً للتمرد البشري والكفر في أبشع صوره بدليل أنه القائل: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤]، أما قومه؛ فلأنهم ساروا على نهجه كما صوّر قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزُّخرُف:٥٤].

كما أن السورة بينت أن فرعون وقومه كذبوا بكل ما جاءهم من الآيات بدليل الصيغة الدالة على العموم (كلها)، وإزاء هذا العتوّ والجبروت، كان لا بد أن يكون العقاب متناسباً مع شدة الجرم لذا جاء قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤٢]؛ ليصور شدة العذاب الذي حلّ بفرعون وقومه، وانتصب (أخذ) على المفعولية المطلقة مبيناً لنوع الأخذ بأفظع مما هو معروف للمخاطبين من

أخذ الملوك والجبابرة[٥٣]، ولم يبقِ هذا الأخذ على فرعون ولا جنده وذلك بإغراقهم بحيث قطع دابرهم[٥٤] كما أن الفاء في (فأخذناهم) دلت على سرعة حلول العذاب بهم.

وأسند الحدث إلى (نا) الدالة على التعظيم والتفخيم، ليبين شدة عذابهم، وجاءت صفتا الجلالة (عزيز مقتدر) لتلقيا ظلالاً من الشدة في الأخذ، وفي الوقت ذاته للتعريض بعزة فرعون واقتداره على البغي والظلم[٥٥] كما أن المقتدر أبلغ من القادر؛ لأن كل زيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى، وقدّم العزة على القدرة لأن العزيز القوي الغالب يدبر وينفذ، وتأتي القدرة لتسنده فيما يفعل؛ ليقهر أعداءه ويذلهم بعذابهم؛ لذا حفلت السورة بألوان شتى من مشاهد العذاب والدمار، وهي من بدئها إلى نهايتها حملة عنيفة مفزعة على المكذبين بآيات القرآن، وطابع السورة الخاص، طابع التهديد والوعيد[٥٦] فهي تحدثت عن العذاب الذي حلّ بقوم نوح- عليه السلام- وعاد وثمود وقوم لوط- عليه السلام- وقوم فرعون.

وتأتي (عزيز مقتدر) في موقف العذاب مقابل (مليك مقتدر) في سياق تكريم المؤمنين، وهما متوازنتان عزيز بموازاة مليك وعلى الوزن نفسه، ومقتدر مكررة نفسها؛ لتشمل القدرة بنوعيها في أقصى صورها في موقف التكريم، وفي موقف التعذيب على تضادهما، وتأتي عزيز مناسبة لكسر عزة فرعون المدعاة التي كان يقسم بها السحرة؛ لتبين من هو صاحب العزة المطلقة حقاً، ولتكرس أن العزة لله جميعاً.

وافتتحت مشاهد العذاب في السورة بمشهد غيبي مستقبلي مما سيحدث للكفار يوم القيامة، وما سيلاقونه من عنت ومشقة، لم تفصح عنه الآيات مباشرة مكتفية بإيجاز القصر الذي يتمثل في قوله تعالى (شيء نكر) مصوراً أهوال يوم القيامة بـ"منكر فظيع

تنكره النفوس؛ لأنها لم تعهد بمثله"[٥٧] والنكر نعت للأمر الشديد[٥٨]؛ لذا جاء وصفاً لهول يوم القيامة، كما أن قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٨] يصور جانباً آخر من أهوال يوم القيامة، و"وصفوه بالعسر لشدة أهواله وبلباله"[٥٩] فـ(عسر) صفة مشبهة من العسر وهو الشدة والصعوبة، ووصف اليوم بـ(عسر) وصف مجازي عقلي باعتبار كونه زماناً لأمور عسرة شديدة من شدة الحساب وانتظار العذاب "كما أن وزن نُكُر قليل في الصفات"[٦٠] وفي هذا دلالة خاصة، وجاء تنكير (يوم) ونعته بـ(عسر) لتخصيصه بتلك الصفة ليدل على خصوصية ذاك اليوم، وتميزه على بقية الأيام ليفيد معنى التهويل[٦١]، فهذا المشهد على الرغم من قصره إلا أنه تضمن الشيء الكثير لما ينتظر الكفار في يوم القيامة، وفي الوقت ذاته جاء ممهداً للحديث عن مشاهد العذاب الدنيوي الذي حلّ بمن استحقه، وبذا تكون السورة عبرت بلقطتين متباعدتين زمانياً لكنهما تلتقيان في النتيجة، وهي أن القادر على العذاب الدنيوي فيما مضى قادر على العذاب الأخروي فيما سيأتي؛ لذا شرعت الآيات في سرد العذاب الذي حلّ بقوم نوح- عليه السلام- عندما استحقوه، وجاء الحديث عن عذابهم في سياق تحذير مشركي مكة من ملاقاة المصير نفسه إن استمروا على ما هم عليه، وجاء أيضاً ليدلل على أن النُذُر لم تغنِ قوم نوح- عليه السلام-عن طغيانهم[٦٢]؛ ليكون نموذجاً على قدرته -سبحانه وتعالى- وبذا يكون الغرض من (قبلهم) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر:٩] "تقرير تسلية النبي- عليه السلام- أي أن هذه شنشنة أهل الضلال"[٦٣]، ولعل في هذا تمهيداً له- عليه السلام- لما سيلقاه من قومه، وفي الوقت ذاته تحذير لمشركي مكة، وضرب مثل لهم[٦٤].

أما غاية تكرار التكذيب في قوله (كذبت- فكذبوا) للدلالة على أن فعل التكذيب تكرر حدوثه منهم جيلاً بعد جيل[٦٥] كما أن صيغة التضعيف في "كذبت" يؤكد هذا المعنى، فنوح -عليه السلام- استمر في دعاء قومه ما يقارب ألف عام- كما صرّح النص القرآني- فكانت النتيجة "فما آمن معه إلا قليل"؛ لذا أسند التكذيب إلى القوم جميعهم[٦٦]وكشف أسلوب القصر (ما وإلا) عن قلة عدد المؤمنين منهم.

ولعل الله- سبحانه وتعالى- أراد أن يرفع من شأن نوح- عليه السلام- والتخفيف عنه مما يلاقيه من قومه؛ لذا وصفه بالعبودية مع الإضافة إلى نون العظمة في قوله (عبدنا) في مقام التشريف له، وفي الوقت ذاته زيادة في التشنيع على الذين كذّبوا به[٦٧]؛ إذ كيف يمكن لهم تكذيب من كان هذا شأنه عند الله؛ لذا سينصره عليهم ولو بعد حين.

ولم يكتف قومه بتكذيبه بل وصفوه بالجنون، أي "يقول ما لا يقبله عاقل، وذلك مبالغة في تكذيبهم"[٦٨] وحالوا بينه وبين إيصال الرسالة، " وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم"[٦٩] كما في قولهم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]، وأفعالهم هذه وأقوالهم تبرز مدى إصرارهم على ضلالهم وعنادهم، وإزاء مواقفهم هذه لم يكن أمامه- عليه السلام- إلا الدعاء عليهم في قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِر﴾ [القمر:١٠]؛ ليمثل صرخة صادرة من أعماقه بعد يأسه من إيمانهم، وشفقته على من يتولد منهم فيتبعهم في كفرهم، فيكون من أهل النار؛ لذا جاءت الاستجابة السريعة من الله- سبحانه وتعالى- في ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِر وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِر﴾ [القمر:١١و١٢] كما أن (نا) الدالة على التعظيم في (فتحنا) زادت من تصوير شدة العذاب الذي حلّ بهم، وجُمعت أبواب السماء للدلالة على كثرة الأمطار وانصبابها، مع أن كلمة المنهمر تدل

على الانصباب بشدة وغزارة، زيادة في إبراز هول الموقف، واللافت أن الله- عز وجل- عذبهم بمادة الحياة الأولى (الماء) فكما بدّلوا نعمة الله كفراً بدّل الله النعمة عليهم عذاباً وأهوالاً ودماراً.

وصورت الآيتان العذاب بمشهدين- اتفقا في تصوير النتيجة (شدة العذاب)- الأول: مشهد للعذاب من السماء، ففي قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِر﴾ [القمر:١١] مركب تمثيلي لهيئة اندفاق الأمطار من الجو بهيئة خروج الجماعات من أبواب الدار على طريقة[٧٠]:

* وسالت بأعناق المطي الأباطح*[٧١]

ويرى الشريف الرضي أن المراد "بتفتيح أبواب السماء تسهيل سبل الأمطار حتى لا يحبسها حابس، ولا يلفتها لافت. ومفهوم ذلك إزالة العوائق عن مجاري الغيوث من السماء حتى تصير بمنزلة حبيس فتح عنه باب، أو معقول أطلق عنه عقال"[٧٢].

أما قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِر﴾ [القمر:١٢] فصور مشهد العذاب من الأرض، وتركيب الآية في قوله تعالى:﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ﴾ دلّ على أن الأرض كلها صارت عيوناً- بخلاف لو قيل وفجرنا عيون الأرض-[٧٣] متفجرة مبالغة في تصوير العذاب بدليل قوله(فجّرنا) ويوحي التفجير بشدة تدفق الماء، ومن كل مكان على الأرض حتى لا تبقى يابسة بدليل قوله (عيوناً) وهو ما اقتضى صنع السفينة فهي وسيلة النجاة الوحيدة، كما تدل (فجَّر) بالتشديد على القوة والمباغتة والسرعة وتومئ إلى الغضب الإلهي، وجمع الكثرة (عيون) وتنكيرها يشير إلى كثرتها وتنوعها.

والمراد بالآيتين بيان اختلاط ماء الأمطار المنهمرة بماء العيون المتفجرة، فالتقى ماؤهما كما يلتقي الجيشان على ما قدره الله- سبحانه وتعالى- من غير زيادة ولا نقصان. وهذا من أفصح الكلام، وأوقع العبارات عن هذه الحال[٧٤] وفي هذا الوصف تصوير لهول الموقف وإشعار بشدة الطوفان.

وعلى الرغم من الأجواء الشديدة والمخيفة التي صورتها الآيتان للطوفان الذي حدث، جاء قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُر تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِر﴾ [القمر:١٣و١٤]؛ ليوحي بمقدار الأمن والطمأنينة التي نعم بها من كان داخل السفينة، وفي هذا التصوير إشعار بتكريم الله- سبحانه وتعالى- لنوح- عليه السلام- ومن كان معه من المؤمنين، بأن مَنّ عليهم بالإيمان فجعلهم داخل السفينة وليس خارجها، ودليل على قدرته - سبحانه وتعالى- على نُصرة المؤمنين وإهلاك غيرهم. ولا يخفى أنه ما كان للسفينة مهما كانت عظيمة أن تحمي من فيها في ذاك الطوفان العجيب الشامل الصاخب، لولا عناية الله التي ترعاها وترعى من فيها، فهي ما قال الشريف الرضي "تجري ونحن عالمون بجريها غير خاف علينا شيء من تصرفها"[٧٥].

وجاء التعبير بـ(أعيننا) "لتقوية المعنى لأن الجمع أقوى من المفرد أي بحراسات منا وعنايات، ويجوز أن يكون الجمع باعتبار أنواع العنايات بتنوع آثارها"[٧٦] كما أن الباء في (بأعيننا) تدل على "المصاحبة فعين الله- سبحانه وتعالى- تصحب هذه السفينة؛ لأنها سفينة بُنيت لتقوى الله، وإنجاء أوليائه من الغرق"[٧٧] وفي هذا احتفاء بهم وتكريم لهم من الله.

ومما يدل على أن عناية الله- سبحانه وتعالى- كانت ترعى نوحاً-عليه السلام- ومن معه أنه - سبحانه- هو الذي أوحى إليه كيفية صنع السفينة، إذ لم تكن السفن تعرف قبل ذلك[٧٨]؛ لذا فصَّل القول في صنعها ليكون ذلك تعليماً للبشر أن يصنعوا

السفن على هذا النحو[٧٩] الذي اتضح في قوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ ومع أنّ كلمة ألواح تدل على الجمع إلا أن تنكيرها جاء لتصوير عظمتها ومتانتها وكثرتها، وتنوع مادة الألواح وكذلك الدسر، كما أن كلمة الدسر أعم من المسامير؛ لأن الأخشاب قد تربط بالمسامير وبالحبال، وفي هذا دلالة على أن توثيق هذه الألواح بعضها بعضاً كان قوياً[٨٠] لتتحمل شدة الطوفان.

وتضمن قوله تعالى: ﴿جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ تكريماً آخر لنوح- عليه السلام- بتشبيهه له بالنعمة التي مَنّ بها الله- سبحانه وتعالى- على قومه لكنهم جحدوا بها[٨١]؛ لذا استحقوا العذاب على فعلهم هذا، وفي الوقت ذاته تضمن هذا التذييل دليلاً على قدرة الله- سبحانه وتعالى- على نصرة أوليائه، وإهلاك أعدائه، أما (كان) في هذا السياق فتدل على طول الفترة الزمنية التي قضاها نوح- عليه السلام- يدعو قومه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تدل- ضمناً- على تكذيب قومه له[٨٢].

وخُتِم مشهد عذاب قوم نوح- عليه السلام- بقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:١٦]؛ لتهويل العذاب الشامل المدمر المستأصل لهم، ولم ينج منهم أحد[٨٣].

ثم شرعت السورة في سرد قصة عاد الذين لم ينتفعوا بالنذر التي أُرسلت إليهم، شأنهم في هذا الأمر شأن قوم نوح-عليه السلام- وكان مقتضى الظاهر أن يعطف قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ [القمر:١٨] على قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر:٩]، ولكنها فُصلت عنها "ليكون في الكلام تكرير التوبيخ والتهديد والنعي عليهم عقب قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَر﴾ [القمر:٤] ومقام التوبيخ والنعي يقتضي التكرير"[٨٤] وفي افتتاح قصة القومين بالتكذيب دليل على أنّ مِلّة الكفر واحدة، وأن العلة الدائمة التي تسبب هلاك المهلكين هي تكذيب الرسل عليهم السلام.

وجاء التعبير بصيغة التعميم عن تكذيب عاد الرسل في قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ من باب التغليب؛ لأن معظمهم كذّبوا نبيهم وما آمن معه إلا قليل[٨٥] وحُذف مفعول كذبت

للدلالة على أنهم كذبوا الرسل ونوحاً -عليه السلام- من جملتهم، ويجوز كذلك أن يكون المحذوف نوحاً- عليه السلام- والمعنى أنهم كذبوه بمجرد أن دعاهم، واستمروا في تكذيبه جيلاً بعد جيل[٨٦].

ولم تتعرض الآية لكيفية تكذيب عاد لنبيهم "روماً للاختصار، ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب"[٨٧]؛ لذا جاء قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ "لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى ما يُلقى إليهم قبل ذكره"[٨٨]، ثم جاء التفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:١٩] وأسند الله- سبحانه وتعالى- الحدث إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾ للإشعار بشدة غضبه عليهم، وبشدة العذاب الذي حلّ بهم، ودلت (نا) الدالة على العظمة على قدرته- سبحانه وتعالى- وهيمنته وامتلاكه لتلك الأقوام وتسيير أقدارها.

وصورت كلمة (صرصر) شدة العذاب المعنوي والمادي الذي حلّ بهم، فالمادي تمثل في برودة هذه الريح، أما المعنوي فتمثل في صوتها الشديد "حتى إن مجرد نفوذها يسمع له صرير، وإن لم تصطدم بما يقتضي الصرير؛ لأنها قوية جداً"[٨٩] أما لماذا كان عذابهم بالريح؟ ربما لأنهم اعتمدوا على قوتهم، والريح أشد الأشياء قوة فاستأصلهم الله بها[٩٠]، أو للرد عليهم لاغترارهم بقوتهم، فهاهم لا يستطيعون فعل أي شيء إزاء الريح، ذلك أن المراد ترسيخه في الطبيعة من الظواهر ما هو مسخر لهم بأمر الله، وهو نفسه بأمره وحده أيضاً يمكن أن يسخر عليهم، فيهلكهم.

وجيء بالريح مفردة لأنها وردت في سياق العذاب. يقول السيوطي في الإفراد والجمع في القرآن في تحليل أسلوبي دقيق: "ومن ذلك (الريح) ذكرت مجموعة ومفردة، فحيث ذكرت في سياق الرحمة جمعت، أو في سياق العذاب أفردت". أخرج ابن أبي

حاتم وغيره عن أُبيّ بن كعب قال: كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب، ولهذا ورد في الحديث عن ابن عباس، كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا هاجت ريح استقبلها بوجهه، وجثا على ركبتيه ومد بيديه وقال: "اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً"[٩١]، وحكمة ذلك "أن ريح العذاب تأتي من وجه واحد ولا معارض له ولا دافع"[٩٢].

ومما زاد في ألم عاد ومعاناتهم وشدة عذابهم، وصف اليوم بالنحس المستمر الذي استمر عذابه حتى أهلكهم جميعاً[٩٣]، وتحتمل المستمر أن تكون وصفاً لليوم "الشديد المرارة والبشاعة"[٩٤]، وإذا أخذنا بالرأي القائل إن (مستمر) صفة للنحس وليس لليوم فيكون المعنى "نحس دائم عليهم فَعُلِم من الاستمرار أنه أبادهم إذ لو نجوا لما كان النحس مستمراً"[٩٥]، وفي إضافة النحس إلى اليوم من باب المجاز العقلي، وفي هذا إشعار بقوة العذاب الذي حلّ بهم، وإحاطته بهم، فلم ينجُ منهم أحد، بل تشير أيضاً إلى استمرار عذابهم في البرزخ ثم في الآخرة.

وجاءت الصورة الحسية البصرية الحركية في قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] لتصور المشهد غير المرئي من عذابهم بالنسبة لمن لم يرهم المتمثل في تشبيههم بأعجاز النخل المنقعر "لأن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤوس"[٩٦]، وفي هذا تقريب للصورة، وإبراز لشدة العذاب الذي حلّ بهم، وشدة الريح وقوتها.

كما أن الفعل ينزع يصور شدة الأخذ لأن النزع يعني "الإزالة بعنف لئلا يبقى اتصال بين المزال وبين ما كان متصلاً به"[٩٧]؛ لذا كانت الريح تقلعهم عن أماكنهم "وكانوا يصطفون آخذين بأيدي بعض، ويدخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدقّ رقابهم"[٩٨]، وفي هذا الوصف تصوير للمشهد في أدق تفاصيله، وإبراز لشدة العذاب الذي حلّ بهم.

وفي تصوير الريح تنزع أعجاز النخل إيحاء إلى أن العذاب الذي حلّ بهم كان عذاب استئصال بدليل أنه قلعهم من جذورهم والنبتة التي تقلع من جذورها لا حياة لها[٩٩] وتممت كلمة (منقعر) الصورة؛ لأن "الريح صرعتهم صرعاً تفلقت منه بطونهم وتطايرت أمعاؤهم وأفئدتهم فصاروا جثثاً فُرغاً، وهذا تفظيع لحالهم، ومثلة لهم لتخويف من يراهم"[١٠٠] فكلمة (منقعر) لخصت المشهد في أشد لحظاته صعوبة وقوة، والآية ذكرت مشهد النخل المنقعر لتدع للقارئ فرصة تخيّل المشهد غير المرئي (مشهد هلاك عاد) فالمشهد المرئي الحسيّ، دلّ على المشهد غير المرئي؛ فلا أحد رأى مشهد عذاب قوم عاد– لحدوثه في الماضي البعيد– لكن ابن الصحراء رأى بأم عينه أعجاز النخل المنقعر، وبهذا تكون قنطرة المشابهة نقلت أسرار الماضي السحيق عبر صورة حسية لها قوة التجربة[١٠١].

وجاء قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:٢١]؛ ليكون ختاماً لمشهد عذاب عاد وغرضه "تهويل لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما، فليس فيه شائبة تكرار"[١٠٢] حتى وإن اتحدا في اللفظ فالغرض مختلف[١٠٣]؛ لأن التأمل في الآيتين يبين أن الغرض من ذكر قوله تعالى الآنف الذكر في أول قصة عاد مختلف عن غرضه من ذكره في نهاية قصتهم. "وتكرر التهويل بالاستفهام قبل ذكر ما حلّ بهم وبعده؛ لغرابة ما عُذبوا به من الريح، وانفرادهم بهذا النوع من العذاب؛ ولأن الاختصار داعية الاعتبار والتدبر"[١٠٤].

أما مشهد عذاب ثمود فافتتح بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٢٣] مصرحاً بما كذبوا به وهو النذر والمراد به "الإنذارات والمواعظ التي سمعوها من صالح- عليه السلام- أو بالرسل- عليهم السلام- فإن تكذيبهم أحدهم تكذيب للكل؛ لاتفاقهم على أصول الشرائع"[١٠٥] وفي هذا تحذير بطريق غير مباشر لمشركي قريش بأن حالهم لن يكون أفضل من حال ثمود إن هم استمروا على كفرهم وعنادهم.

كما أن جمع كلمة (نذر) يدل على كثرة ما قدّمه صالح- عليه السلام- لقومه من تحذيرات، وما إرسال صالح- عليه السلام- إليهم إلا أكبر دليل على هذه النذر المحذرة لهم من عواقب طغيانهم.

ويبرز قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٢٤] إصرارهم على عنادهم وكفرهم، وهذا نموذج واضح لتكذيبهم بالنذر التي أُرسلت إليهم، وحجتهم في ذلك: أنهم لا يؤمنون لفرد، ليس بأفضلهم ولا من أشرافهم[١٠٦]، وقولهم هذا من باب تجاهل العارف الذي خرج مخرج التعجب[١٠٧] وهم يعترضون على حكمة الله- سبحانه وتعالى- وتقديره للأمور، فهم يقيسون الأمور بمقاييس قصور أفهامهم[١٠٨]؛ لذا جاء استنكارهم أن يختار صالحاً- عليه السلام- للرسالة، وفيهم- من وجهة نظرهم- من هو أحقّ بها منه وأولى، كما أفصح عن ذلك قوله تعالى: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر:٢٥]، وفي هذا دليل على زيادتهم في الإنكار والاستبعاد، ويتضمن قوله (أَؤُلْقِيَ) معنى العجلة في الفعل، والعرب تستعمل هذا الفعل، ومنه: وألقيت عليك محبة مني[١٠٩]، "ولفظ إلقاء الذكر ههنا مستعار: والمراد به أن القرآن لعظيم شأنه وصعوبة أدائه كالعبء الثقيل الذي يشق على من حُمّله وألقي عليه ثقله"[١١٠].

وهم لم يكتفوا بالاعتراض على نبوته بل وصفوه بالكذاب الأشر الذي "حمله بطره وشطارته وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك"[١١١] كما أن الاستفهام في قولهم (أؤلقي) يشي بالاحتقار، وكأنهم يريدون القول: كيف يُلقى الذكر عليه من بيننا ما الذي ميّزه[١١٢]، ودلّ قولهم (أَؤُلْقِيَ) ببناء الفعل للمجهول على كفرهم وعنادهم، فهم لا يريدون نسبة الحدث إلى الله- سبحانه وتعالى- لأنهم لو قالوا ذلك لأقروا بأن الله هو الذي أرسله رسولاً؛ لذا جاءت صيغة المبالغة في (كذّاب) لتكشف عن حقيقة رأيهم فيه، فهم يرون أنه كذّاب موصوف بالذي ليس له صفة إلا الكذب، وكثير الكذب أيضاً، فهي للمبالغة وللوصف أيضاً[١١٣] وعظيم البطر كذلك، كما أن استعمالهم لصيغة المبالغة ينم عن حسدهم له وتكبرهم عليه، وغيظهم لما خص به من الرسالة أكثر من قناعتهم بأنه يكذب في ما يبلغ عن ربه. وكان يجدر بهم المسارعة إلى الإيمان بغض النظر عن جنس الرسول وصفته، وعدم التعلل بالأعذار الواهية لتبرير عدم إيمانهم، حتى يظهروا بمظهر الباحث عن الحق والصواب ليتبعه.

ومما يدل على استخفاف قوم صالح -عليه السلام- به خطابهم له بصيغة الغائب في قولهم ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا﴾ وكأنه- من وجهة نظرهم- لا يستحق أن يوجه إليه الكلام مباشرة، وهذا قمة التكبر والطغيان؛ لذا جاء الرد صريحاً وسريعاً في قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر:٢٦] متضمناً "وعداً له ووعيداً لقومه، والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده"[١١٤]، "والمعنى أنهم هم الكذابون الأشرون، وأورد ذلك مورد الإبهام والاحتمال، وإن كانوا هم المعنيين بقوله تعالى"[١١٥].

كما أن كلمة (غداً) أوحت بقرب العذاب الذي سيحل بهم؛ لذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر:٢٧] استئنافاً مسوقاً لبيان ما تضمنه قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ من الوعيد وتقريب زمانه والتصديق للرسول الذي كذبوه[١١٦] وافتتاح الآية بالجملة الاسمية (إنا مرسلو) يدل على تحقق الحدث قبل

وقوعه، وبما أن المخبر هو الله- سبحانه وتعالى- فكأن الحدث تمّ ووقع، ولم تقل الآية سوف نرسل أو سنرسل؛ للإفادة من دلالة الجملة الاسمية على الديمومة والثبات، وإسناد الحدث إلى (نا) الدالة على التعظيم؛ لأن السياق سياق تعظيم وتفخيم، وإرسال المعجزات الدالة على القدرة في أبهى تجلياتها. وفي إسناد الحدث إلى نفسه- سبحانه وتعالى- تعظيم وتفخيم؛ لأن الناقة ستكون مقدمة الأسباب التي سيحلّ بهم العذاب لأجلها، فهي "آية لهم، وحجة لصالح- عليه السلام- على حقيقة نبوته وصدق قوله"[١١٧] وابتلاء لهم، "وتقدير معنى الكلام: إنا مرسلو الناقة آية لك وفتنة لهم"[١١٨]؛ لذا جاء الأمر ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِر﴾؛ لحثه على الانتظار وعدم التعجل، والتبصر بما سيصنعون بالناقة[١١٩] ومما يدل على عظمة الأمر قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٍ﴾ [القمر:٢٨]، فالنبأ في القرآن الكريم يأتي للدلالة على الخبر العظيم العاجل المهم الثابتة صحته؛ لأن بعد هذا الإنباء سيكون الامتحان ثم العاقبة، ولكن سرعان ما نادوا صاحبهم فعقر الناقة كما صوّر قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩]، فالفاء في (فنادوه) تدل على مسارعتهم في طلبه، وفي وصفه له- سبحانه وتعالى- بـ(صاحبهم) ما يدل على مباركتهم لفعله ورضائهم عنه[١٢٠] واشتراكهم معه، ومع أن قسماً منهم هم الذين نادوه إلا أن إسناد الحدث إلى ضمير الجماعة يشملهم جميعاً؛ لأن من سكت عن فعله ولم ينهه عنه، فهو شريك له بالقتل فالرأي والعزم واحد.

وتتابع الفاء في (فتعاطى- فعقر) يدل على سرعته في الاستجابة والتنفيذ[١٢١] فهو لم يتردد، ولم يفكر بالتراجع ... الخ، والفعل تعاطى يدل على جرأته على "تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقة"[١٢٢]، كما أن صيغة (تفاعل/ تعاطى) "تقتضي تعدد الفاعل، شبّه تخوف القوم من قتلها، لما أنذرهم به رسولهم من الوعيد، وترددهم في الإقدام على قتلها بالمعاطاة فكل واحد حين يُحجم عن مباشرة ذلك، ويشير

بغيره كأنه يعطي ما بيده إلى يد غيره حتى أخذه قدار"[١٢٣] بل لعل التعاطي كان بالتحاور بينه وبين من دعوه من قومه لعقر الناقة، وهو المساومة على أجرة أو نحوها.

وإزاء فعلهم هذا استحقوا العذاب الذي وُعدوا به، وهذا ما أبان عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، ومع أن كلمة (صيحة) تدل على العدد واحد، إلا أنها أُكدت بواحدة، للإشعار بشدة العذاب، وأنه كان دفعة واحدة لا تدرج فيه، وفيه تناسب مع سرعة عصيانهم، وسرعة ذبحهم للناقة فجاء العذاب متناسباً مع جرمهم، ويفهم من كلمة الصيحة أيضاً أنها "صاعقة عظيمة خارقة للعادة أهلكتهم، فهي أتت على قبيلة كاملة"[١٢٤]، وفي هذا التصوير إبراز لشدة العذاب الذي حلّ بهم.

ورسمت (كانوا) في قوله تعالى: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ صورتين لحال القوم، الأولى: حالهم قبل العذاب فهم كانوا في نضارة وحيوية وقوة وحسن ... الخ[١٢٥] والصورة الثانية حالهم بعد الصيحة فإذا هم "كالهشيم الذي يجمعه صاحب الحظيرة، أي قد انتهى إلى غاية الجفاف حتى بلغ إلى أن يُجمَع ليُوقد"[١٢٦] وبذا تدل كلمة (كان) في هذا السياق على التحول والصيرورة بل التلاشي فـ(كان) "تجيء بمعنى (صار) حين يراد بها كون متجدد لم يكن من قبل"[١٢٧]، ووصف القوم بعد العذاب بالهشيم المحتظر للدلالة على أنهم "بادوا عن آخرهم لم تبقَ منهم باقية وخمدوا وهمدوا"[١٢٨]، فالهشيم يكون سهل الانكسار. كما أن صورة الهشيم المحتظر أوحت للمتلقي بالصورة المقابلة لها صورة القوم قبل هلاكهم، وهم في كامل قوتهم وعزهم، فهم قبلاً كالعود الخضر النضر.

وهكذا أُسدلت الستارة على مشهد عذابهم بصورة حسية بصرية (صورة الهشيم المحتظر)، وغرض هذا الوصف تقريب الصورة للأذهان، فالمتلقي لم يرَ العذاب الذي حلّ بهم لكنه رأى الهشيم المحتظر، كما أن هذا الوصف يبرز قدرة الله- سبحانه وتعالى- على نصرة المؤمنين، وإهلاك أعدائه عندما يستحقون ذلك.

وفيما يتعلق بقوم لوط- عليه السلام- فلم تسرد السورة تفاصيل تكذيبهم له في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٣] ولعل مرد هذا الاختصار يعود؛ لأن سورة القمر مبنية على إبراز إعراض المشركين عبر العصور عن الانتفاع بالنذر المتتالية؛ لذا لم تذكر من أقوال المشركين وأحوالهم إلا ما كان متشابهاً مع أقوال مشركي مكة وأفعالهم، ومن المتعارف عليه أن قوم لوط- عليه السلام- تميزوا بأفعال منكرة خاصة بهم؛ لذا لم يذكر من مواقفهم هنا إلا ما كان منسجماً مع غرض سورة القمر من قصّ مواقف الأقوام السابقين مع أنبيائهم، وإلا فقد سُردت تفاصيل تكذيب قوم لوط في سور: الأعراف وهود والحجر[١٢٩]، ولا يخفى ما في الاستغناء عن ذكر التكذيب ههنا من إشارة إلى أن جريمتهم أكبر من التكذيب، كما تدل على سرعة المباغتة في العذاب لمن كان مرتكباً لهذه الفاحشة؛ لذا شرعت في سرد العذاب الذي حلّ بهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤]، وتمثل عذابهم في الريح الشديدة التي تقلع الحصباء لقوتها، وقيل ترميهم بالحجارة والحصباء[١٣٠] كما في قول الفرزدق[١٣١]:

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصبٍ كنديف القطن منثور

وفي هذا دليل على زيادة ألمهم ومعاناتهم.

ونُكّرت كلمة (حاصباً) للدلالة على شدة العذاب وعظمته وشموله فهو يفيد ههنا التهويل، وأُسند فعل العذاب إلى (نا) الدالة على التعظيم لإبراز شدة العذاب أيضاً، وفي الوقت ذاته أُسِند فعل إنجاء قوم لوط- عليه السلام- إلى (نا) الدالة على التعظيم أيضاً، لإبراز عظيم فضل الخالق وذلك بإنجائه أولياءه وحدهم من العذاب، فهو سبحانه بيده كل شيء، إحلال العذاب بمن يستحقه، وإنجاء من يستحق النجاة، كما أنها تبين أن العذاب عبارة عن جنود مسوّمة موجهة لكل من هو في قائمة المعذبين، وليس الأمر عشوائياً.

وأبرز الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ قدرة الخالق- سبحانه وتعالى- فما قبل (إلا) يدل على عموم العذاب، وما بعدها يدل على النجاة من العذاب، فهو القادر وحده على فعل الشيء ونقيضه في آن واحد؛ ليكون في ذلك عبرة لمن يعتبر، كما أن الاستثناء جاء مصداقاً لما وعد به الله- سبحانه وتعالى- بنصرة أنبيائه وأتباعهم وإهلاك من عاداهم.

وحُدِدت الفترة الزمنية ما بين نجاة قوم لوط- عليه السلام- (السحر) وبين العذاب الأكبر الذي حلّ بالقوم (بكرة) وفي هذا إشعار بأن النجاة كانت قبيل حلول العذاب[١٣٢]، ولعل هذا سر تحديد الآية للزمن بدقة.

ومع أن المفهوم من قوله تعالى (نجيناهم) أن إنجاء آل لوط- عليه السلام- من العذاب كان عاماً ولم يستثنِ منهم أحداً، مع أن آيات أخرى في سور أُخر بينت أن امرأته لم تكن من الناجين*؛ وفي هذا بيان أن من لا يؤمن بالرسول لا يعد من آله، كما قال سبحانه في خطاب نوح عليه السلام[١٣٣] ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]، كما أن الفعل نجيناهم يدل على أن النجاة كانت دفعة واحدة؛ لأن الوقت بدأ ينفد سريعاً؛ ولهذا جاء وصف الإنجاء من العذاب بأنه نعمة من الله يمنّ بها على

عباده الصالحين في قوله: ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر:٣٥]، وجاء القيد (من عندنا) للتنويه "بشأن هذه النعمة؛ لأن ظرف (عند) يدل على الادخار والاستئثار مثل (لدن) في قوله (من لدنا) فذلك أبلغ من أن يقال: نعمة منا أو أنعمنا"[١٣٤].

ولئن جاء قوله تعالى السابق تعقيباً على إنجاء آل لوط- عليه السلام- إلا أنه يتضمن حكماً عاماً مفاده "وكما أثبنا لوطاً وآله، وأنعمنا عليه، فأنجيناهم من عذابنا بطاعتهم إيانا كذلك نثيب من شكرنا على نعمتنا عليه، فأطاعنا وانتهى إلى أمرنا ونهينا من جميع خلقنا"[١٣٥]، وبهذا يوحي قوله السابق بأن "إهلاك غيرهم لأنهم كفروا، وهذا تعريض بإنذار المشركين وبشارة للمؤمنين"[١٣٦].

ومن سنن الله الثابتة أنه لا يعذّب قوماً إلا بعد أن يرسل لهم النذر الكافية لعلهم يتعظون قبل وقوع العذاب، وهذا المعنى أبان عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦]، وجاءت المؤكدات (لام القسم وحرف التحقيق (قد) والفعل الماضي) لإبراز الغرض الذي من أجله سيقت هذه القصة، وهو اتعاظ مشركي مكة قبل فوات الأوان[١٣٧] هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليبرز مدى تمرد قوم لوط- عليه السلام- وعصيانهم وعدم انتفاعهم بتحذيره لهم من البطشة، وتوحي صيغة (فَعْلَة) بشدة الأخذ وبعظم تلك البطشة وقوتها، وفيها تمثيل للإهلاك السريع[١٣٨]، وتشير إلى أنها واحدة لا أكثر، فذاك أمر هيّن عند الله، وأُسندِت لله تعالى وبـ(نا) الدالة على العظمة للإشعار بعظم العذاب الذي سيحلّ لهم، ومع ذلك لم يؤثر فيهم هذا التحذير الشديد بل تماروا بالنذر للدلالة على تشككهم في مدى صدقها، أو في حصولها.

ودلت الفاء في قوله (فتماروا) على سرعة تكذيبهم، والمبالغة فيه بدليل صيغة المفاعلة وتضمن (تماروا) معنى كذبوا[١٣٩]؛ لذا كان لا بدّ من إنزال عقوبة فورية رادعة تمثلت في طمس أعينهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ

فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:٣٧]، ودلت الفاء في (فطمسنا) على سرعة إهلاك العذاب بهم بما استحقوا، وهذا عذاب جزئي- على الرغم من شدته- قياساً بما سيحدث لهم لاحقاً؛ لذا جاء القول(فذوقوا) للإشعار بمزيد من الألم والعذاب.

ومما يدل على سوء خلق قوم لوط- عليه السلام- أنهم لم يؤذوا لوطاً- عليه السلام- فحسب بل لم يحترموا ضيوفه وفي هذا إحراج كبير له أمامهم، كما أفصح عن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ وأسندت الآية فعل المراودة إلى جميع قوم لوط- عليه السلام- بدليل واو الجماعة في (راودوه) مع أن الفعل صدر عن جماعة منهم فقط؛ لأن هذا مرادهم كلهم وإن صدر عن بعضهم(١٤٠)، كما أن سكوت غيرهم على فعلهم هذا يشجعهم على الاستمرار فيما هم عليه، وسكوت المتفحشين يتضمن الموافقة والرضا ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥] فالخير يخص، والبلاء يعم.

وختمت الآيات التي تحدثت عن قصة قوم لوط- عليه السلام- بالعذاب الذي حلّ بهم صباحاً دون تحديد لماهيّة هذا العذاب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌ﴾ [القمر:٣٨]. ووُصف العذاب بالمستقر للدلالة على أنه "ثابت قد استقر عليهم إلى أن يفضي لهم إلى عذاب الآخرة"(١٤١)، كما أنه "يجري على قوة واحدة لا يقلع حتى استأصلهم"(١٤٢)، ولئن لم تفصح سورة القمر عن ماهية العذاب الذي حلّ بهم إلا إن ما ورد في سورتي: الأعراف وهود أفصح عن ماهيته، مما يعني أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً.

ويلفتنا في عذاب قوم لوط- عليه السلام- حديث الآيات عن ثلاثة أنواع من العذاب حلّت بهم، عذاب دنيوي محدود (الطمس) وعذاب دنيوي مستقر (عذاب

استئصال)، وفي هذا إشعار بمقدار غضب الله- سبحانه وتعالى- عليهم، لفعلهم المنكر هذا من جهة، ومن جهة أخرى هذان العذابان الدنيويان ما هما إلا تمهيد للعذاب الأكبر الذي ينتظرهم في الآخرة، وعلى الرغم من شدة العذاب الدنيوي الذي حلّ بهم إلا أنه لا يكاد يُذكر أمام ما ينتظرهم في الآخرة. ولعل التشديد على آل لوط وتكرار ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُر﴾؛ لأنهم ارتكبوا فظيعتين: الأولى تكذيب الرسل-عليهم السلام- في دعوتهم إلى توحيد الله، والثانية: في انعدام الشيم والأخلاق الحميدة فيهم بما فيها عدم اعتبار حرمة الضيف.

وتتالت المؤكدات في سرد قصة قوم لوط- عليه السلام- في قوله: (ولقد أنذرهم، ولقد راودوه، ولقد صبّحهم) وتكرر قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُر﴾ مرتين أيضاً وفي هذا دلالة على أنهم تجازوا كل حد بتمردهم؛ لذا استحقوا العذاب الأشد الذي يشير إلى شدة غضب الله عليهم، وفي هذا إنذار بطريق غير مباشر لكفار مكة لأخذ العبرة والعظة مما حدث معهم(١٤٣) وهذا ما أفصح عنه قوله تعالى:﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُر﴾ [القمر:٤٣].

وتحول الضمير من الخطاب ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ إلى الأمر ﴿فَذُوقُوا﴾ فيه تنبيه وتأثير أكبر على المستمع من الكفار؛ ليعلموا أنهم معنيون بالخطاب مباشرة، منذرون بالعذاب، وهو منهم قريب.

وإذا كان من سنن الله -سبحانه وتعالى-الثابتة أنه لا يُعذب قوماً إلا بعد أن يرسل إليهم النذر الكافية، وكذلك من سننه الثابتة تأييد رسله-عليهم السلام- بالمعجزات الدالة على صدقهم، والدالة كذلك على قدرة الخالق- سبحانه وتعالى- والمفارقة أنها لم تؤد الغرض المطلوب منها، وهو أن تكون حافزاً أو دافعاً للإيمان، وكأن الآيات تريد القول إن ملة الكفر واحدة عبر العصور المختلفة. لكن بالمقابل

هناك فئة تؤمن غالباً، ويؤثر فيها الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار غير أن الحديث ههنا عن مآل المكذبين؛ لأخذ العبرة والعظة.

المعجزات:

تميزت سورة القمر بكثرة المعجزات التي وردت فيها، وهذا يتناسب مع مضمون السورة الذي تحدث عن تكذيب الأقوام لرسلهم، وعنادهم مما اقتضى إرسال المعجزات؛ لتكون دليلا على صدق الرسل-عليهم السلام- وفي الوقت ذاته لتتحداهم لعلهم يؤمنون قبل فوات الأوان؛ لذا بدأت السورة بالحديث عن معجزة انشقاق القمر، وكان رد المشركين الإعراض ووصفوا ما شاهدوا بالسحر المستمر، واستمروا على ما هم فيه من عناد وكفر.

ثم عادت الآيات بالذاكرة إلى الوراء حيث قوم نوح- عليه السلام- وتكذيبهم برسالته وحلول العذاب بهم، وكانت النتيجة نجاة من كان بالسفينة، وبقيت السفينة ماثلة للعيان محفوظة من البلى[١٤٤] لتكون عبرة لمن يعتبر بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٥]، وعن قتادة: "أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة[١٤٥] وهذا مصداق لقوله تعالى في ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥؛ لذا جاء الاستفهام في خاتمة الآية ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ للحث على التذكر وأخذ العبرة والعظة، وهذا الأمر ليس خاصاً بقوم دون آخر؛ لذا جاءت (من) للدلالة على عموم الجنس[١٤٦].

أما ثالث المعجزات التي تحدثت عنها السورة فهي ناقة صالح- عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِر﴾ [القمر:٢٧] فهي كانت "آية لهم، وحجة لصالح- عليه السلام- على حقيقة نبوته، وصدق قوله"[١٤٧] فهم الذين سألوا صالحاً- عليه السلام- الإتيان بما يدل على صدقه- شأنهم في هذا المجال شأن بعض كفار مكة- لذا جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِر﴾ بالارتقاب والاصطبار معاً؛ ليرى رد فعلهم فكانت النتيجة أنهم عقروها، ودلّ الأمر بالارتقاب على أن عليه أن يرتقب ما يحصل لهم من الفتنة عند ظهور الناقة؛ لأنه لا يرتقب ذواتهم، وإنما يرتقب أحوالاً تحصل منهم، وهذا هو سر تعدية الارتقاب إلى ضميرهم، وهنا لا بد من تقدير مضاف يقتضيه الكلام، ولم يُذكر اختصاراً اعتماداً على ظهور المعنى[١٤٨] أما الاصطبار ففيه حثّ على الصبر الذي "لا يعتريه ملل ولا ضجر، أي اصبر على تكذيبهم ولا تيأس من النصر عليهم"[١٤٩]؛ والاصطبار أقوى من الصبر وأبلغ، فليس من السهل أن يرى رسول قومه يعصون الله ويعاندونه، ويصبر منتظراً أن يحل بهم العذاب، وفي ذلك إرهاص لصالح- عليه السلام- إلى ما سيلقاه من قومه من عنت ومشقة، وما يحتاج إلى اصطناع الصبر وتكلفه والتزيد منه.

وحذف متعلق اصطبر للدلالة على التعميم، فهو مأمور بالصبر والتحمل على كل ما سيصدر عنهم من أذى أو إعراض، أو كفر، ... الخ. وكذلك الصبر على ما قد يجده في نفسه وهو ينتظر النصر[١٥٠]، وكأنه اصطبر عليهم واصطبر على نفسه.

وجاء الارتقاب أولاً ثم الاصطبار ثانياً لترتيب الحدث كما سيحدث في أرض الواقع فعليه السلام مطالب بمراقبة ما سيصدر عنهم من أفعال أو أقوال ثم عليه الاصطبار عليها.

وعلى الرغم من أن سورة القمر لم تسمِّ الناقة معجزة إلا أن فحوى الكلام يدل على أنها معجزة، كما أنه سبحانه وتعالى وصفها صراحة بالآية في قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:١٥٤] وقوله تعالى:﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥].

والإرسال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو﴾ مستعار لجعلها آية لصالح- عليه السلام- جرياً على عادة القرآن الكريم في إطلاق الإرسال على الخوارق التي أيدَّ بها- سبحانه وتعالى- رسله[١٥١]- عليهم السلام- كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩].

وافتتحت الآية بـ(نا) الدالة على التعظيم والتفخيم، لأن مثل هذا الحدث لا يقوى عليه إلا الله- سبحانه وتعالى- وهو إخراج الناقة من الهضبة حسبما سألوا[١٥٢] ومع أن الآية تحدثت عن أمر مستقبلي لم يحدث بعد (إرسال الناقة) إلا أن الآية عبّرت عنه بصيغة اسم الفاعل لتقريب زمن الاستقبال من زمن الحال[١٥٣] وللدلالة على تأكيد وقوع الحدث، وبما أنه وعد رباني إذن كأنه تحقق وتمّ؛ لذا عبّر عنه بالجملة الاسمية لا بالفعلية. فلم يقل مثلاً: سنرسل، أو سوف نرسل، بل قال: إنا مرسلو.

وختمت السورة الحديث عن المعجزات بمعجزات موسى- عليه السلام- إلى فرعون وقومه في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ [القمر:٤١] وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ [القمر:٤٢]، وتميزت الآية بما فيها من تكثيف فصيغة كذبوا بدلالتها على التكثير تبين شدة تكذيبهم وإعراضهم فهم كذبوا المرة تلو المرة، كما أن جمع كلمة (آيات) يدل على كثرة المعجزات التي أتت فرعون وقومه، والنتيجة هي هي لا تتغير، التكذيب بها؛ لذا جاء التعميم (كلها) يدل على أنهم لم يؤمنوا بشيء منها[١٥٤].

وجاء التعبير بواو الجماعة في قوله (كذبوا) "بناء على ظاهر حالهم، وإلا فقد آمن منهم رجل واحد كما تبين ذلك في سورة غافر"[١٥٥] ولكن ما نسبة الواحد إلى الجماعة هنا؟

وفي إسناد الآيات إلى (نا) الدالة على التعظيم والتفخيم بيان أن إرسال المعجزات مما اختص به سبحانه وتعالى. كما أن السورة لم تتحدث بالتفصيل عن المعجزات التي أيدّ بها الله- سبحانه وتعالى- موسى- عليه السلام- ليتناسب مع أجواء الإيجاز التي غلبت على هذه السورة.

النتائج:

ضربت سورة القمر نماذج دالة على قدرة الخالق- سبحانه وتعالى- على الإتيان بالمعجزات الواحدة تلو الواحدة لإبراز عظيم قدرته في أمور مادية ملموسة شاهد بعضها الناس بأم أعينهم كما في معجزة انشقاق القمر؛ لتكون دليلاً على قدرته- سبحانه وتعالى- على البعث والحساب، فالمشاهد المرئية في الدنيا تهدف إلى الإقناع بما سيحدث يوم القيامة، والقادر على فعل هذا في الدنيا قادر على فعل مثله وزيادة في الآخرة؛ لذا جاء تصوير مشهد خروج الناس من أجداثهم في هذه السورة في هذا السياق.

وجاءت صيغة مقتدر في هذه السورة في سياق تعذيب قوم فرعون وفي سياق الحديث عن نعيم أهل الجنة؛ لأن الفعلين لا يقوى عليهما إلا المقتدر فهو أبلغ من القادر، لقدرته على إيقاع العقوبة الرادعة بأشد البشر عتواً وطغياناً (فرعون) إذن "عدل من قدر إلى اقتدر لدلالة الأمر على التفخيم وشدة الأخذ، أو على بسطة القدرة"[١٥٦]، وفي الوقت ذاته القادر على إيقاع مثل هذه العقوبة قادر أيضاً على تكريم المتقين بأرقى أنواع التكريم، كما وصفت الآية في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وكشفت المفارقة عن حقيقة المشركين الذين يزدادون إعراضاً وكفراً كلما ازدادت النذر، إلى أن حلّت بهم العقوبة الرادعة المتناسبة مع كفرهم، وكان ينبغي بهم الانتفاع بالنذر قبل فوات الأوان؛ لذا تكرر الحديث عن الإنذار عقب الحديث عن العذاب المدمر الذي نزل بمستحقيه.

وصورّت المقابلة في السورة حال المؤمنين وحال المشركين يوم القيامة، وذلك من خلال الحديث عن مظاهر التكريم التي سينعم بها أهل الجنة، ومظاهر العذاب الذي سيحلّ بأهل النار، فمن جهة نجد أرقى انواع النعيم المادي والمعنوي، في مقابل أشد أنواع العذاب المادي والمعنوي.

تميز القصص الوارد في هذه السورة بالإيجاز والتكثيف؛ لأنها جاءت في سياق الوعيد والتهديد، وتميزت كذلك بنهايتها المأساوية للأقوام التي استنفذت كل سبل الهداية والإنذار، وفي هذا دليل على مقدار جبروتهم وعتوهم الذي لم يجدِ نفعاً أمام قدرة الخالق-سبحانه وتعالى- كما انها اكتفت بذكر المشاهد المتشابهة مع مواقف مشركي مكة، والنص القرآني لا يعرض من القصة إلا الجانب الذي يتناسب مع مضمون السورة وأجوائها، ويختار اللقطة الدالة المعبرة.

وغلب على السورة طابع التهديد والوعيد؛ لأنها تحدثت عن تكذيب الرسل-عليهم السلام- وما لاقوه من أذى واضطهاد وإعراض، ثم تصوير مشاهد العذاب التي حلّت بأقوامهم لما استحقوا ذلك؛ كل هذا التحذير للاتعاظ قبل فوات الأوان.

الهوامش

(١) لمزيد من التفاصيل ينظر: ميويك، د.سي، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبدالواحد لؤلؤة، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد،١٩٨٧، ١٩ و٢٦- ٤٣ وخالد سليمان، المفارقة والأدب، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩، ١٤-٢١.

(*) يطلق على القصيدة التي يتفق مطلعها وختامها لفظاً وتركيباً، لمزيد من التفاصيل ينظر: عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢، ٢٥٦.

(٢) الجرجاني، عبدالقاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية، دمشق، مكتبة سعد الدين، ط٢، ١٣٦،١٩٨٧.

(٣) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، وزكريا عبد المجيد النوقي، وأحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣،٨/١٧١.

(٤) ميويك، المفارقة وصفاتها، ٤٤ و٦٧.

(٥) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٧،١٩٩٠، ١٦٧/٢ والطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، هذّبه وحققه وضبط نصه وعلّق عليه: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤، ٧ /١٦٠.

(٦) الزمخشري، أبو القاسم جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٢٠/٤ وأبو حيان، البحر المحيط١٧٠/٨-١٧١ وعن أنس- رضي الله عنه- قال: سأل أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر "ينظر:البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ضبطه ورقم أحاديثه وصنع فهارسه: محمد عبدالقادر أحمد عطا، دار التقوى للتراث، القاهرة، ط١، ٢٠٠١، ٦٠٠/٢.

(٧) أبو السعود، تفسير أبي السعود،١٦٧/٧.

(*) المقصود بها "إن المفارقة أداة لفظية، تدل على سلوك يختلف تماماً عما تعبّر عنه حرفياً. وغالباً ما يكون هذا السلوك مضاداً أو مخالفاً لذلك الذي يعبّر عنه حرفياً" ولمزيد من التفاصيل ينظر: محمد العبد، المفارقة القرآنية، مكتبة الآداب، ط٢، ٢٠٠٦، ١٢١-١٢٢.

(٨) السابق، ١٢١.

(٩) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٧٢/٢٧.

(١٠) السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى الشيخ مصطفى وشعيب الأرناؤوط، دمشق، مطبعة الرسالة، ٤٠٥.

(١١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ١٧٢/٢٧.

(١٢) أبو السعود، تفسير أبي السعود١٦٨/٧.

(١٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٧٥-١٧٦.

(١٤) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧/١٦٨.

(١٥) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ٢٧/١٧٦.

(١٦) السابق نفسه ٢٧ /١٧٥.

(١٧) السابق نفسه

(١٨) ابن عثيمين، محمد بن صالح، تفسير سورة القمر، موقع إلكتروني، منشور بتاريخ ٢٠ حزيران ٢٠٠٥.

www.ibnothaimeen.com/all/.../printer_17823.shtml

(١٩) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧/١٦٨.

(٢٠) الطبري، جامع البيان ٧/١٧١.

(٢١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢٠٥.

(٢٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٢٣) ابن هشام، عبدالله جمال الدين بن يوسف، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة، ١/١٣٨و١٣٩، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢١٣.

(٢٤) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢١١-٢١٢.

(٢٥) ابن منظور، لسان العرب، (دها). والبحر المحيط٨/١٨١.

(٢٦) أبو حيان، البحر المحيط٨/١٨١.

(٢٧) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق: محمد عبدالغني حسن، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٦،٢٧٣.

(٢٨) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢١٥.

(٢٩) السابق، ٢٧/٢١٦.

(٣٠) الزمخشري، الكشاف٤ /٤٢٩.

(٣١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢١٦.

(٣٢) السابق، ٢٧/٢١٥.

(٣٣) الزمخشري، الكشاف٤/٤٢٦ وأبو السعود، تفسير أبي السعود ٨/١٧١.

(٣٤) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧ /١٧٥.

(٣٥) الزمخشري، الكشاف ٤/٤٣١.

(٣٦) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢٢٥.

(٣٧) السابق، الصفحة نفسها.

(٣٨) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تقديم: عبدالقادر الأرناؤوط، دار الفيحاء، دمشق ودار السلام، الرياض، ط٢، ١٩٩٨، ٤/٣٤٤.

(٣٩) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢٢٥.

(٤٠) أبو حيان، البحر المحيط، ١٨٢/٨.

(٤١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (قدر).

(٤٢) العلوي، يحيى بن حمزة، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ٢٨٠.

(٤٣) الإستانبولي، إسماعيل حقي بن مصطفى، تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي٩/٢٦٢.

(٤٤) محمد مفتاح، المفاهيم: معالم ، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي، المغرب، ط١، ١٩٩٩، ٣٣.

(٤٥) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير١٩١/٢٧.

(٤٦) الإستانبولي، إسماعيل حقي بن مصطفى، تفسير روح البيان، ٩ /٢٦٢.

(٤٧) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير١٨٧/٢٧ والطبري، جامع البيان ١٦٥/٧-١٦٧.

(٤٨) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧ /١٧٠.

(٤٩) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير١٨٧/٢٧.

(*) الأعراف، ٨٠ والنمل ،٥٤.

(٥٠) أبو السعود، تفسير أبي السعود١٧٣/٧.

(٥١) الكشاف، ٤٢٨/٤.

(٥٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٠٦/٢٧.

* القصص، ٣٨ والنازعات، ٢٤.

(٥٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٠٩/٢٧.

(٥٤) السابق الصفحة نفسها.

(٥٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط ٢٦ ،١٩٩٧ ، ٦ / ٣٤٣٥ .

(٥٦) الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط١٧،١٩٨١،٣٧/١.

(٥٧) الزمخشري، الكشاف ٤٢٢/٤.

(٥٨) أبو حيان، البحر المحيط، ١٧٣/٨.

(٥٩) الطبري، جامع البيان ١٦٢/٧.

(٦٠) أبو حيان، البحر المحيط،١٧٣/٨.

(٦١) السابق الصفحة ١٧٤/٨ والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير١٧٨/٢٧.

(٦٢) الطبري، جامع البيان١٦١/٧.

(٦٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ١٧٩/٢٧.

(٦٤) أبو حيان، البحر المحيط ١٧٤/٨.

(٦٥) أبو السعود، تفسير أبي السعود١٦٩/٧.

(٦٦) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٨٠.

(٦٧) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧/١٦٩.

(٦٨) أبو حيان، البحر المحيط ٨/ ١٧٥.

(٦٩) السابق الصفحة نفسها، والزمخشري، الكشاف ٤/٤٢٣.

(٧٠) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٨٢.

(٧١) كثير عزة، كثير بن عبدالرحمن، ديوان كثير عزة، جمعه وشرحه: إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١،٥٢٥.

(٧٢) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ٢٧٢.

(٧٣) ابن أبي الإصبع المصري، بديع القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشروالتوزيع، ٢/٢٠.

(٧٤) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن ،٢٧٢.

(٧٥) السابق، ١٥٨.

(٧٦) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٨٥.

(٧٧) ابن عثيمين، موقع الكتروني.

(٧٨) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ٢٧/١٨٤.

(٧٩) ابن عثيمين، موقع إلكتروني.

(٨٠) السابق.

(٨١) الزمخشري، الكشاف٤/٤٢٤ وأبو السعود، تفسير أبي السعود ٧/١٧٠.

(٨٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٨٥.

(٨٣) أبو حيان، البحر المحيط ٨/١٧٦.

(٨٤) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٩١.

(٨٥) السابق الصفحة نفسها.

(٨٦) أبو حيان، البحر المحيط ٨/١٧٤.

(٨٧) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧ /١٧٠.

(٨٨) السابق الصفحة نفسها.

(٨٩) ابن عثيمين، موقع إلكتروني.

(٩٠) الإستانبولي، إسماعيل حقي بن مصطفى،٩/٢٦٢.

(٩١) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط١١،١٩٨٣،٢/٢١٣. رقم الحديث ١١٥٣٣.

(٩٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٤١٠.

(٩٣) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧/١٧٠.

(٩٤) الزمخشري، الكشاف٤/٤٢٥.

(٩٥) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٩٣.

(٩٦) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧/١٧١.

(٩٧) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٩٣.

(٩٨) الزمخشري، الكشاف ٤/٤٢٥- ٤٢٦.

(٩٩) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٩٤.

(١٠٠) السابق الصفحة نفسها.

(١٠١) عمر، أحمد مختار، لغة القرآن، دراسة توثيقية فنية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط٢، ١٩٧٧، ٢٢٣.

(١٠٢) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧/١٧١.

(١٠٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧ /١٩١.

(١٠٤) أبو حيان، البحر المحيط ٨/١٧٧.

(١٠٥) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧/١٧١.

(١٠٦) الزمخشري، الكشاف،٤/٤٢٦.

(١٠٧) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ٢/٥١.

(١٠٨) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٩٧.

(١٠٩) أبو حيان، البحر المحيط، ٨/١٧٨.

(١١٠) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن،٢٧٢.

(١١١) الزمخشري، الكشاف ٤/٤٢٧.

(١١٢) ابن عثيمين، موقع إلكتروني.

(١١٣) السابق نفسه.

(١١٤) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧ /١٧١.

(١١٥) أبو حيان، البحر المحيط ٨/ ١٧٩.

(١١٦) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٩٩.

(١١٧) الطبري، جامع البيان ١٦٨/٧.

(١١٨) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٩٩.

(١١٩) السابق، الصفحة نفسها.

(١٢٠) السابق٢٧/٢٠١.

(١٢١) السابق٢٧/٢٠٢.

(١٢٢) الزمخشري، الكشاف ٤٢٧/٤.

(١٢٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/ ٢٠١-٢٠٢.

(١٢٤) السابق الصفحة نفسها.

(١٢٥) الطبري، جامع البيان ١٦٩/٧.

(١٢٦) ابن ناقيا البغدادي، الجمان في تشبيهات القرآن، تحقيق: عدنان محمد زرزور ومحمد رضوان الداية، المطبعة العصرية، الكويت، ط١، ١٩٦٨، ٣١٢.

(١٢٧) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢٠٢.

(١٢٨) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم٤/٣٣٩.

(١٢٩) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢٠٤.

(١٣٠) لسان العرب، مادة (حصب).

(١٣١) الفرزدق: همام بن غالب، ديوان الفرزدق، إملاء: محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي، طبعة باريس سنة،١٨٧٠، ١٠٢.

(١٣٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ٢٧/٢٠٤.

(*) الأعراف، ٨٣ والنمل٥٧.

(١٣٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢٠٤.

(١٣٤) السابق٢٧/٢٠٥.

(١٣٥) الطبري، جامع البيان ٧/١٧٠.

(١٣٦) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧ /٢٠٥.

(١٣٧) السابق٢٧/٢٠٥.

(١٣٨) السابق الصفحة نفسها.

(١٣٩) السابق الصفحة نفسها.

(١٤٠) السابق، ٢٧ /٢٠٦.

(١٤١) الزمخشري، الكشاف ٤/٤٢٨ .

(١٤٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢٠٧.

(١٤٣) الزمخشري، الكشاف٤/٤٢٨ والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ٢٧/٢٠٧.

(١٤٤) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٨٦.

(١٤٥) البخاري، صحيح البخاري٢/٦٠٠.

(١٤٦) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/١٨٧.

(١٤٧) الطبري، جامع البيان ٧/١٦٨.

(١٤٨) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢٠٠.

(١٤٩) السابق الصفحة نفسها.

(١٥٠) السابق.

(١٥١) السابق ٢٧/١٩٩.

(١٥٢) أبو السعود، تفسير أبي السعود٧/١٧٢.

(١٥٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير٢٧/٢٠٠.

(١٥٤) السابق ٢٧/٢٠٩.

(١٥٥) السابق ٢٧/٢٠٨.

(١٥٦) الطيبي، شرف الدين الحسين بن محمد، التبيان في البيان، تحقيق: توفيق الفيل وعبداللطيف لطف الله، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، ط١، ١٩٨٦، ٣٩٨.